الحياة الثقافية بالأندلس وعوامل ازدهارها على عهد دولة بني الأحمر

أ- عبد القادر بوحسون

أستاذ التاريخ بجامعة سعيدة

منذ أن فتح المسلمون الأندلس أولوا اهتماما كبيرا للجانب الثقافي، من خلال تشجيعهم للعلماء والأدباء والفنانين، فازدهرت الحياة الثقافية أيّما ازدهار، ونبغ بالأندلس العديد من العلماء في مختلف المجالات، والذين بلغت شهرتهم الأفاق، ولن يكون بوسعنا الحديث عن الحياة الثقافية بالأندلس عبر جميع عهودها الإسلامية، وإنما سنقتصر على عهد بني الأحمر أو بني نصر، وقبل الحديث عن الحياة الثقافية بهذه الدولة لابد أولا من التعريف بهذة الدولة.

التعريف بدولة بني الأحمر:

دولة بني الأحمر أو بني نصر هي دولة أسسها بالأندلس محمد بن يوسف بن نصر الذي يعرف بالشيخ وبابن الأحمر سنة635هـ الموافق لـ1238م[1]، والذي اتخذ غرناطة عاصمة لدولته التي انحصرت جنوب إسبانيا وكانت تضم ثلاث ولايات كبرى هي: غرناطة، مالقة، ألمرية[2].

وكانت هذه الدولة آخر معقل للمسلمين بالأندلس بعد سقوط الكثير من المدن بأيدي النصارى[3]، فأضحت غرناطة والمدن المجاورة لها مقصدا للمسلمين الذين فروا من الاضطهاد المسيحي، واستطاعت هذه الدولة الصمود لفترة طويلة ضد ضربات النصارى المتتالية إلى أن سقطت بأيديهم سنة 897هـ/1492م وقصد آخر سلاطينها وهران ومنها انتقل إلى تلمسان[4].

وعلى الرغم من تدهور الأوضاع السياسية بهذه الدولة بسبب الإضرابات والفتن الداخلية نتيجة الثورات المناهضة لهذه الدولة من جهة وهجمات النصارى من جهة أخرى إلا أن الحركة العلمية والثقافية بصفة عامة عرفت ازدهارا كبيرا وذلك لعدة عوامل وأسباب.

عوامل ازدهار الحياة الثقافية :

1.تشجيع السلاطين للحياة الثقافية:

لقد اهتم سلاطين الأندلس عامة بالعلم، وشارك العديد منهم في الحياة العلمية والأدبية عبر مختلف عهود التاريخ الإسلامي للأندلس كعبد الرحمان الداخل المنصور بن أبي عامر، أمراء بني عباد وبني صمادح وغيرهم.

أما سلاطين بني نصر فكانوا هم أيضا شديدو الاهتـمام والاعتناء بهذا الجـانب كمحمد بن يوسف بن نصر (635-671هـ/1238-1272م)، الذي وصف بأنه كان شديد العزم، مرهوب الإقتداء، وكان يعقد مجلسا كل أسبوع ترفع إليه فيه المظالم، ويشافه طلاّب الحاجات، ويستمع لإنشاد الشعراء، في مجلس يحضره العلماء والقضاة، توفي سنة 671هـ/1272م، وكان منقوشا على قبره :

هَذَا مَحَلُّ العُلاَ وَالمَجْدِ وَالكَـرَمِ قَبْرُ الإمَامِ الهُمَامِ الظاهِرِ العِلمِ
لِلّهِ مَا ضَمَّ هَذَا اللَّحْـدُ مِنْ شَرَفٍ جَمٍّ ومِنْ شِيَـمٍ عَلَويَّةِ الشِّيَـمِ[5]

ومحمد الثاني أبو عبد الله المعروف بالفقيه (671-701هـ/1272-1302م) الذي كان يؤثر العلماء والكتاب والشعراء، ويشارك في الحياة الأدبية، إذ كان له شعر كثير مستظرف من قبل الملوك والأمراء، ومما قاله من الشعر مخاطبا وزيره:

تذكَّر عزيزَ ليالٍ مضَـتْ وإعطائِنَا المَالَ بالرَاحَتَين
وقدْ قصَدتْنَا مُلُوكُ الجِهاتِ ومَالُوا إلَينَا من العُدْوَتَيْـن
وإذا سَألَ السِّلمَ منَّا مُعيـنٌ فلَم يُحْظَ إلاّ بِخُفي حُنَيـن[6]

أما خليفته محمد الثالث (701-707هـ/1302-1307م) فكان هو الآخر محبا للعلم والعلماء، قال فيه لسان الدين بن الخطيب: " كان من أعظم أهل بيته صيتا وهمّة، أصيل المجد، مليح الصورة، عريق الإمارة. ..، يقرض الشعر ويصغي إليه، ويثيب عليه، ويعرف مقدار العلم العلماء "[7]، ولا ننسى كذلك السلطان أبو الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل (733-755هـ/1333-1354م)، الذي كان جلّة الملوك فضلا وعقلا واعتدالا[8]، وقد استوزر لسان الدين ابن الخطيب بعد وفاة شيخه ابن الجياب، كما أكرم هذا السلطان العلماء الوافدين عليه، مثل ابن مرزوق

الخطيب (710-781هـ/1311-1379م)، الذي أدناه من مجلسه، وعينه خطيبا ومدرسا بجامع غرناطة[9]، ولما توفي أبو الحجاج (755ه/1354م) خلفه ابنه محمد الخامس(755-760ه/1354-1359م) الذي كان بدوره محبّا للعلماء ومقربا لهم كما فعل مع لسان الدين بن الخطيب، في عهده دخل عبد الرحمان بن خلدون(732-808ه/1332-1407م) الأندلس، فأكرمه هذا السلطان أحسن إكرام، وكتب إليه وزيره ابن الخطيب قبل وصوله الى غرناطة رسالة يهنئه فيها على القدوم، ومما كتبه له فيها قصيدة مطلعها:

حَلَلْتَ حُلُولَ الغَيثِ بالبلَدِ المُحَلِ على الطَّائِرِ المَيمُونِ والرَّحبِ والسَّهلِ
يَمينًا بِمَن تَعنُو الوُجُوهَ لوَجْهِهِ مِنَ الشَّيْخِ والطفلِ المُــهَدَّئِ والكَهلِ
لَقَدْ نَشَأَتْ عِندِي لِلُقيَاكَ غِبْطَةً تُنْسِي اغْتِبَاطِي بالشَّبِيبَةِ والأَهْــلِ[10]

ولا ننسى كذلك السلطان محمد بن إسماعيل، الذي بويع بعد وفاة والده أبي الوليد سنة (725هـ/1325م)، ورغم أنه كان لا يزال صغيرا، إلا أن عهده عرف ازدهارا كبيرا من الناحية العلمية، إذ برز في عهده جم غفير من العلماء والأدباء.

2. دور المؤسسات التعليمية:

كان للمؤسسات التعليمية دورا فعّالا في النشاط الثقافي بالمغرب بالأندلس، وحظيت هذه المؤسسات برعاية السلاطين من خلال بناء المساجد والمدارس، وجلب العلماء للتدريس بها، والإنفاق على طلبتها والقائمين عليها وتنظيم برامجها الدراسية.

ـــ المساجـــد:

أدى المسجد بالأندلس دورا كبيرا في الحياة العلمية والثقافية، قلّما نجد له مثيلا في أنحاء العالم الإسلامي، وذلك راجع إلى كون الأندلسيين لم يهتموا ببناء المدارس وإنما كانوا يدرسون جميع العلوم في المساجد [11]، حيث كان المسجد عبارة عن مصلى ودار للإفتاء ومدرسة جامعة، يرتادها الطلبة الراغبون في العلم، والعلماء من مختلف الأقطار لإلقاء الدروس، التي كانت تسمى بحلقات العلم، إذ كان الطلبة يشكلون حلقة حول شيخهم وهذه الحلقة تضيق وتتسع بحسب المسجد وسمعته [12]. وكانت المساجد منتشرة في مختلف مدن وقرى الأندلس، وأهم تلك المساجد: مسجد قرطبة الذي شرع في بناءه عبد الرحمان بن معاوية (الداخل) سنة 170 هـ/786 م، وكان يريد أن يكون من أعظم

المساجد وأفخمها بالأندلس ولكنه توفي قبل إتمامه، فأكمله ولده هشام (172-180 هـ/782-796 م) من بعده[13]

وعرف هذا المسجد زيادات عديدة من قبل سلاطين وخلفاء بني أمية كعبد الرحمن الثاني (206-238 هـ/822-852 م)[14] وعبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله (300 -350 هـ/912 -961 م) الذي أعاد بناء صومعته بشكل بديع، حتى قيل بأنه ليس في بلاد المسلمين صومعة مثلها [15].

وكان هذا المسجد معظما من قبل أهل قرطبة، ووصف بأنه من عجائب الدنيا[16] وفضلا عن وظيفته الدينية، كان يتخذ لبعض المهام الكبرى، كأخذ البيعة للأميرأو الخليفة الجديد، وتقرأ على منبره الأوامر والأحكام الهامة، كما كان يعقد به مجلس قاضي القضاة[17]، وكان أيضا مركزا لجامعة قرطبة التي أسسها عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله (300-350هـ/912 -961 م) به، والتي كان يدرس بها مختلف العلوم، وجعلت من قرطبة إحدى أهم المراكز الثقافية بالعالم الإسلامي[18].

أما غرناطة فهي الأخرى كان بها العديد من المساجد التي أدت دورا كبيرا في تنشيط الحياة الثقافية[19]، أهمها المسجد الجامع الذي بناه محمد بن محمد بن نصر المعروف بالفقيه، ثاني سلاطين بن نصر، وكان هذا المسجد من أعظم مساجد الأندلس، وكان هذا المسجد المركز الرئيسي الذي تدور حوله الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية، وترتكز حوله الحياة الاقتصادية، إذ فيه تعقد الاجتماعات العامة، وينظر في القضايا، وتعطى الدروس، وتقرأ على منبره النشرات الرسمية والخطابات الهامة[20].

وإضافة إلى هذا المسجد كانت بغرناطة مساجد أخرى منها مسجد الحمراء الأعظم الذي بناه السلطان محمد الثالث المعروف بمحمد المخلوع(702-709هـ/1302-1309م) حوالي سنة 705هـ/1305م، وكان في غاية الروعة والجمال، وحلت محله اليوم كنيسة سانتا مرية[21]، إضافة إلى مسجد القيصارية، مسجد المنصورة، مسجد المرابطين ومسجد ابن سحنون، وغيرها من مساجد غرناطة، ولا ننسى كذلك المسجد الجامع باشبيلية، الذي كان يحتوي على سبعة أبواب، وله صومعة عالية وضخمة[22]، ومساجد أخرى عديدة أدت دورا كبيرا وفعال في الحياة الثقافية بالأندلس.

وقد اعتنى سلاطين بني نصر بالمساجد عناية بالغة، فكانوا ينفقون ويوقفون عليها أوقافا كثيرة، ويحرصون على تعيين أكابر العلماء للعمل بها سواء في الخطابة أو التدريس، حيث اشتهرت بها مجالس العلم والإقراء [23].

ومن مظاهر اهتمام سلاطين بني نصر بالمساجد، إرسالهم رسائل إلى ولاتهم على المدن والأقاليم، يحضونهم فيها على العناية بالمساجد، ومثال ذلك ما كتبة الوزير لسان الدين بن الخطيب إلى أحد الولاة: "...هذا ظهير كريم متضمن استجلاء لأمور الرعية. .. وأمرنا أن يتوجه إلى جهة كذا، فيجمع الناس في مساجدهم ويبدأ بتقرير غرضنا في إصلاح أحوالهم...، ويتفقد المساجد تفقدا يكسوا عاريها ويُتمم منها المآب تتميما يرضي باريها، ويندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم، فذلك أصل أديانهم. .."[24].

– المـــدارس:

المدارس من المنشآت الثقافية المستحدثة في العالم الإسلامي، وأول مدرسة بنيت في العالم الإسلامي هي المدرسة البيهقية بنيسابور أوائل القرن 5هـ/11 م، ثم المدرسة النظامية ببغداد التي بناها الوزير السلجوقي قوام الدين الطوسي سنة457 هـ/1065م[25].

وأما ببلاد المغرب الإسلامي فقد أسست عدة مدارس رسمية مهمتها العناية بأبناء السلاطين وتكوين مستخدمي الدولة كمدرسة سبتة التي بنيت سنة 635هـ/1249 م والمدرسة الشماعية في تونس التي بنيت بين سنتي (633-647هـ/1235-1249 م)[26]، وفيما يخص المغرب الأوسط فقد أنشئت أول مدرسة عليا على نمط المدارس النظامية بالمشرق وتونس وهي مدرسة ابني الإمام. أما الأندلس فلم تعرف نظام المدارس الذي كان معروفا في تلك الفترة، وذلك راجع إلى اهتمام الأندلسيين بالمساجد التي كانت تؤدي دور المدارس، فكانت تُدرّس بها جميع العلوم، وقد اشتهرت بالأندلس مدرسة واحدة هي:

–المدرسة النصرية :

النصرية أو اليوسفية بغرناطة، بناها السلطان الناصر أبو الحجاج يوسف الأول(733-755هـ/1333-1352م) في سنة 750هـ/1349م، هذا السلطان كان محبا للعلم ومقربا للعلماء والشعراء والفنانين، ومهتما بالعمران فازدهرت في عهده الحركة العلمية والعمرانيـــة، وشيـــدت هـــذه المـــدرسة بإشـــارة من حـــاجبه رضـــوان(760هـــ/1359م)[27]، وعرفت هذه المدرسة شهرة كبيرة بالأندلس والمغرب الإسلامي، إذ

استقطبت الكثير من طلبة العلم، وتخرج منها العديد من العلماء والأدباء[28]، قال فيها لسان الدين ابن الخطيب قصيدة، كانت منقوشة في إحدى جنابتها:

ألاَ هَكَذا تُبْنَى المَدَارسُ لِلْعِلْمِ   وتَبْقَى عُهُودُ المَجْدِ ثَابِتَةَ iiالرَّسْمِ
ويُقْصَدُ وَجْهُ اللهِ بالعَمَلِ iiالرِّضَا   وتُجْنَى ثِمَارُ العِزِ مِن شَجَرَةِ iiالعِزِّ
تُفَاخِرُ مِنِّي حَضرةُ المُلْكِ iكلّما   تَقَدَّمَ خَصمٌ في الفَخَارِ إلى الخَصْمِ
فَأجْدَى إذا ضَنَّ الغَمَامُ منَ iiالحيَا   وأهْدَى إذا جَنَّ الظَّلامُ منَ النَجْمِ
فيا طَاعِنًا للعِلمِ بِطَلَبِ iiرِحْلَةٍ   كُفَيْفَ اعْتِراضُ البيدِ أو لُجَجٌ أليمِ
بِبابي حَطُّوا الرَّحلَ لا تَنْو iiوجْهَهُ   فقَد فُزْتَ في حَالِ الإقامَةِ iiبالغَنمِ
فكَم من شِهابٍ في سَمائي iiثَاقِبٌ   ومِن هَالَةٍ دارَتْ على قَمَرٍ iiتَمِ
يَفِيضُونَ من نُورٍ مُبينٍ إلى iiهُدًى   ومِن حِكَمٍ تَجْلُو القُلُوبَ إلى iiحِكَمِ
جزَى اللهُ عنِّي يُوسُفًا خيْرَما جزَى   مُلُوكَ بني نَصرٍ عن الدِّين iiوالعِلمِ[29]

كما نظم فيها ابن الجياب (673-749 هـ/1274-1348 م) أبيات كانت مكتوبة على بابها وهي:

يا طَالِباً العِلمَ هذا بابُهُ فُتِحَا   فادْخُل تُشاهِدُ سَنَاهُ لاحَ شَمسُ الضُحـــَى
واشكُر مُجِيركَ من حَلٍّ iiومُرتَحَلٍ   إذا قَرَّبَ اللهُ مِنْ مَرمَاكَ مَا iiنَزَحَ
وشَرُفَتْ حَضْرَةُ الإسلامِ iiمَدْرَسَةٌ   بها سَبِيلُ الهُدَى والعِلمِقدْ iiوَضَحَا
أعْمَالُ يُوسُفَ مَولانا iiونِيَّتُهُ   قد طَرَّزَتْ صُحُفًا مِيزانُها iiرَجَحَا[30]

ولا يزال جزء صغير من هذه المدرسة ماثلا إلى اليوم بإسبانيا، بينما هدم الجزء الأكبر في أوائل القرن الثامن عشر، وشيد مكانة بناء جديد، ونقلت آثارها إلى مختلف متاحف إسبانيا، كمتحف غرناطة الذي توجد فيه اليوم لوحة رخامية مكتوب عليها: (أمر ببناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونورا، وأدامها في علوم الدين على الأيام أمير المسلمين أبو الحجاج يوسف بن أمير المسلمين وناصر الدّين أبي الوليد إسماعيل ابن فرج بن نصر كافى الله في الإسلام حسن صنائعه الزاكية، وتقبل أعماله الجهادية وتمّ ذلك في شهر محرم عام خمسين وسبعمائة)[31].

ويُذكر أيضا أنه كانت هناك مدرسة أخرى في مالقة، لكن لم تكن لها شهرة كبيرة ودرس بها عدد من العلماء والفقهاء، وكانت تتصدّر علم القراءات والتفسير، ويتجلى ذلك من خلال العدد الكبير من المفسرين

والمقرئين الذين تخرجوا منها، كابن الزيات الكلاعي(649-728 هـ/1248-1328م) وغيره[32].

- الزوايـــــا:

أدت الزوايا دورا لا يقل أهمية عن باقي المؤسسات التعليمية الأخرى في تنشيط الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط والأندلس، لاسيما في مجال التعليم، والزاوية أو الربط من الرباط، وهو حبس النفس للجهاد، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يا أيّها الذين ءامنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [33]، أما عند المتصوفة فيعني الرباط أو الزاوية المكان الذي يتعبد فيه فضلا عن إيواء عابري السبيل وإطعام المحتاجين [34].

وحظيت الزوايا باهتمام كبير من قبل سلاطين والأندلس من خلال العناية بها والإنفاق عليها، وإكرام شيوخها، والتبرك بهم في حياتهم وحتى بعد وفاتهم، كالسلطان الغني بالله الذي كان شديد الاعتقاد في الصالحين، حتى أنه لما خُلع وفرّ إلى فاس كتب إلى ضريح الولّي الصالح أبي العباس السبتي بمراكش حتى يعاد إلى ما كان عليه [35].

وكانت بمدينة غرناطة وحدها عدة زوايا، أهمها زاوية الولي الصالح أبي عبد الله بن محروق، والزاوية المعروفة برابطة العقاب وزوايا أخرى [36].

- الكتاتيب القرآنية:

الكتاتيب القرآنية عبارة عن حجرات صغيرة مجاورة للمساجد، تُخصص لتعليم الصبيان الصغار، بدلا من تدريسهم في المساجد المخصصة للصلاة، لأن الإمام مالك - رضي الله عنه- أفتى بعدم جواز تعليم الصبيان في المساجد المخصصة للصلاة حفاظا على طهارتها[37].

وكانت هاته الكتاتيب تقوم بالدرجة الأولى على تحفيظ القرآن الكريم، ولذلك عرفت إقبالا كبيرا، إذ كان سكان المغرب الأوسط والأندلس شديدي الحرص على تحفيظ القرآن الكريم لأولادهم على غرار باقي المسلمين، نظرا لما ورد من الترغيب في ذلك من النصوص الشرعية، كقوله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ [38]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم :(كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قسمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله..)[39].

وإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم، كان يتعلم الصبيان بالكتاتيب الكتابة والقراءة، والإعراب والشعر، وتفسير الغريب من القرآن تفسيرا موجزا إضافة لتعلم طريقة ترتيله وتجويده مستعملين في ذلك لوح مصقول ودواة للحبر، وقلم من قصب، وإناء يمحون فيه ألواحهم، ويبدأ الأطفال يوم الدراسة بحفظ القرآن من الصباح إلى الضحى، ثم يتعلمون الكتابة من الضحى إلى الظهر، ويخصص المساء لبقية المواد كالنحو والحساب والعربية والشعر والتاريخ. .. [40].

ورغم بساطة الكتاتيب من حيث البناء والتجهيزات، إلا أنها أدت دورا كبيرا في التعليم بالمغرب الأوسط والأندلس، وعرفت مستوى رفيع من التنظيم، وحظيت بالاعتناء والاهتمام، فكانت تسند مهمة التدريس بها لقرّاء كبار[41] مقابل أجرة معينة اختلف في جوازها من عدمها في تلك الفترة[42]، وكان يشترط في المعلم عدة شروط حتى يكون أهلا لمباشرة مهنة التعليم في الكتّاب، كمعرفة الإظهار والإدغام والإهمال والإعجام والتفخيم والترقيق وأحكام القرآن[43].

وكانت هاته الكتاتيب تُزيّن أيام المناسبات الدينية، كمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف، حيث كانت تضاء بالشموع، ويجتمع فيها الأطفال بشيوخهم لترتيل ما تيسر من كتاب الله العزيز، وترديد الصلوات النبوية[44].

3.دور المراكز الثقافية:

أدت المراكز الثقافية بالأندلس دورا كبيرا وهامّا في ازدهار الحياة الثقافية، فكانت مقصدا للعلماء والطلبة، أهم تلك المراكز قرطبة، اشبيلية وغرناطة، وسنكتفي بالتعريف بهذه الأخيرة لأن قرطبة واشبيلية سقطتا قبل قيام دولة بني نصر.

- غرناطة:

مدينة غرناطة أو أغرناطة والتي تعني الرمانة، إحدى أعظم وأجمل مدن الأندلس[45]، كانت تسمى بدمشق الأندلس، لشبهها بمدينة دمشق[46]، وكانت هذه المدينة إبّان الفتح الإسلامي مدينة صغيرة لا أهمية لها، تابعة لإقليم ألبيرة، الذي كان يضم عدة مدن إضافة إلى غرناطة كوادي آش،المنكب...[47]، وبعد استكمال عملية الفتح لم يعرها المسلمون اهتماما كبيرا ولكن بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس(422هـ/1029م) واستفحال الثورات والفتن، واستيلاء البربر على ألبيرة، انتقل جل سكان هذه الأخيرة إلى غرناطة التي حلت محل

ألبيرة، ولمّا استولى عليها (غرناطة) البربر هي الأخرى بزعامة زاوي بن زيري الصنهاجي425هـ/1032م أصبحت عاصمة لبربر صنهاجة بالأندلس، إلى أن استولى عليها المرابطون سنة 483هـ/ 1089م بقيادة يوسف بن تاشفين الذي انتزعها من عبد الله بن بلقين الصنهاجي[48]، وبعد ضعف المرابطين وسقوط دولتهم، استولى عليها الموحدون سنة 541هـ/ 1146م ليسيطر عليها فيما بعد محمد بن يوسف بن هود الجذامي سنة 628هـ /1231م الذي ثار على الموحدين سنة 625هـ/ 1228م، واستولى على مناطق واسعة من الأندلس[49]، وبدوره ثار عليه محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر) واستطاع الاستيلاء على غرناطة ومدن أخرى في حدود سنة 635هـ/ 1238م[50]، واتخذ من غرناطة عاصمة لدولته[51]، فعظمت المدينة، وأضحت أهم وأبرز مدن الأندلس على الإطلاق، وقد اعتنى بها سلاطين بني نصر عناية كبيرة، إذ شيدوا بها المساجد والقصور والحصون[52].

وفي الوقت الذي عظمت فيه مدينة غرناطة، كانت مدن الأندلس الأخرى أقل حظا منها، إذ استولى النصارى على أغلبها، كماردة سنة 627هـ/1230م، قرطبة 633هـ/1236م، بلنسية 636هـ/1238م، اشبيلية 646هـ/ 1248م وغيرها[53] ممّا جعل سكان هذه المدن ينحازون إلى المدن التي كانت لا تزال بيد المسلمين لاسيما غرناطة كونها عاصمة الدولة[54]، وبفضل موقعها الحصين[55] ودهاء حكامها من بني نصر استطاعت الصمود ولو لمدة أمام ضربات النصارى[56].

ومن جهة أخرى عرفت غرناطة نشاطا وازدهارا في الحياة الثقافية، وذلك راجع إلى الدور الكبير الذي أدّاه سلاطينها النصريين في هذا المجال، من تشجيع للعلماء، ومشاركة الكثير منهم في الحياة العلمية[57]، كما سبق وذكرنا، فبرز بها العديد من العلماء والأدباء، الذين كانت لهم شهرة واسعة في العالم الإسلامي ويكفي غرناطة شرفا كما قال المقري صاحب نفح الطيب ولادة لسان الدين بن الخطيب بها[58]، كما برز بها العديد من الأعلام إضافة إلى لسان الدين سواء الذين ولدوا ونشئوا بها أو الذين نزلوا واستقروا فيها وأبرزهم أبو سعيد فرج بن لب الغرناطي (701-782هـ/ 1302- 1381م) المفتي الشهير[59]، والفقيه العالم أبو عبد الله الراعي الأندلسي(782-853هـ/ 1381-1450م)[60]، وشيخ المتصوفة أبو علي عمر بن المحروق[61] وغيرهم، وقد احتلت مدينة غرناطة مكانة كبيرة في الحياة الأدبية بالأندلس، إذ حازت على قدر كبير من الاهتمام من قبل الأدباء

والشعراء الذين أبدعوا في وصفها والتغني بها، ومما قيل فيها من الشعر قول القاضي أبو بكر بن شبرين:

رَعَى اللهُ من غَرناطَة مُتَبَــوَّءً يُسِرُّ كئِيبًا أو يُجِيرُ طر يدا
تَبَرَّمَ منها صاحِبي عندَما رأى مَسارحَها بالبَردِ عُدنَ جَلِيدا [62]

وقال فيها أبو عبد الله بن زمرك:

غرناطةُ آنسَ الرحمانُ ساكِنَها باحَتْ بسِرِّ معانِيها أغانِيهَا
فَخَلَّدَ اللهُ أيّامَ السُــرور بــها صُفرا عَشِيتُها بيضًا لياليها[63]

وعلى العموم كانت غرناطة في عهد بني نصر (بني الأحمر) من أهم المراكز الثقافية التي أدت دورا كبيرا في نشاط الحياة الثقافية بالأندلس والمغرب الإسلامي بصفة عامة، وكانت تربطها علاقات ثقافية متينة مع حواضره الأخرى كفاس وتلمسان وبجاية وتونس.

4.عوامل أخرى:

بالإضافة إلى العوامل التي ذكرناها هناك عوامل أخرى ساهمت في ازدهار الحياة الثقافية في المغرب الأوسط والأندلس خلال الفترة المدروسة أهمها:

الرحلات العلمية، التي كانت تعتبر شرطا أساسيا في طلب العلم، وذلك ما عبر عنه عبد الرحمان بن خلدون بقوله: " الرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[64]، ولذلك كان علماء الأندلس يتنقلون بين أرجاء المغرب والمشرق الإسلاميين للقاء أكابر العلماء والأخذ عنهم، وأدّى هؤلاء العلماء دورا كبيرا في نشاط الحياة الثقافية في البلدان التي نزلوا بها من خلال ممارستهم لمهنة التدريس أو الخطابة أو مهام أخرى، وتذكر لنا المصادر التي اعتنت بتراجم العلماء الكثير من علماء المغرب الأوسط الذين ساهموا بقسط كبير في الحياة الثقافية بالأندلس والكثير من علماء الأندلس ممن كان لهم أدوارا ثقافية هامة بالمغرب الأوسط لعل أبرزهم: ابن خميس التلمساني (650-708هـ/1251-1308م) الذي تولى التدريس بغرناطة[65]، وابن مرزوق الخطيب (710-781هـ/1310-1380م) الذي عيّن خطيبا بجامع غرناطة[66]، ومن علماء الأندلس نذكر ابن خطاب المرسي (ت 686هـ/1289م) الذي دخل

تلمسان ونزل على سلطانها يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1236-1282م) فأحسن إليه وعينه كاتبا له[67]، ولسان الدّين بن الخطيب الذي كانت له مراسلات عديدة مع علماء المغرب الأوسط وسلطانه أبي حمو موسى الثاني[68].

ولعبت الوراقة وازدهار فن النسخ كذلك دورا في تنشيط الحياة الثقافية إذ تنافس الفقهاء والخطاطون والطلبة على نسخ المصاحف والكتب المشهورة. كما أدت المكتبات دورا هاما في إنعاش الحياة الثقافية بالأندلس، وقد حظيت هي الأخرى بعناية واهتمام السلاطين والولاة ورجال الفكر، الذين تنافسوا في اقتناء الكتب المختلفة، وإنشاء المكتبات والتي كانت الوعاء الأساسي للاغتراف من العلوم[69].

هذه بصفة عامة أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار الحياة الثقافية بالأندلس خلال عهد بني الأحمر، والتي جعلت من غرطانة إحدى الحواضر العلمية الكبرى في العالم الإسلامي في تلك الفترة، وقد نبغ بها العديد من العلماء وفي مختلف المجالات والذين كانت لهم شهرة كبيرة في المغرب والمشرق الإسلاميين.

الهـــوامـــــش:

([1]) ابن خلدون عبد الرحمان، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص ص 204-205.

(2) ابن الخطيب لسان الدين، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق كمال شباتة،ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003، ص ص 13-15.

(3) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد البقاعي، ط1، ج5، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،1998، ص 263.

(4) Henri leon fey، histoire d'oran avant pendant et après la domination Espagnol، Oran،edition dar el-gharb، 2002، p 57

(5) ابن الخطيب، أعمال الأعمال، القسم الثاني، تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2006، ص ص 59-170.

(6) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة،ط1، مطبعة الموسوعات،مصر، ص ص 368-369.

(7) نفسه، 358.

(8) المقري، المصدر السابق، ج6، ص ص 67-68، أبو الحسن النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، ط5، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص 173، ابن الخطيب أعمال الأعلام، المصدر السابق القسم الثاني، ص ص 304-306.

(9) ابن الخطيب، كناسة الدكان، المصدر السابق، ص 160، ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق محمد تاويت الطنجي،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004، ص62.

(10) ابن خلدون الرحلة، المصدر نفسه، ص 84، محمد بن عبد الكريم السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج4، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (دت)، ص 152.

(11) المقري، المصدر السابق، ج1، ص 181.

(12) هناء الدويديري، "قرطبة مدينة وتراث"، مجلة الحضارة الإسلامية، المرجع السابق، ص 23.

(13) عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 20.

(14)أبو مروان بن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمان علي الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965، ص243.

(15) المقري، المصدر السابق، ج2، ص ص 71-83.

(16) الورداني، الرحلة الأندلسية، تحقيق عبد الجبارالشريف، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الدار التونسية للنشر، تونس،1984، ص 68، عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1986، ص ص 9-28.

(17) محمد عبد الله الحماد،"التخطيط العمراني لمدن الأندلس"، ندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ط1، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1996، ص ص158-159.

(18) هناء الدويديري،قرطبة مدينة وتراث" مجلة الحضارة الإسلامية، العدد الأول، السنة الأولى، وهران، 1993، ص ص 22-24.

(19) الغزال أحمد، رحلة الغزال وسفارته إلى الأندلس، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص195.

(20) الطوخي أحمد أمين، مظاهر الحضارة في الأندلس في عهد بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص57.

(21) عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ط2، مطبعة المدني، القاهرة، 1997، ص 208.

(22) الغزال، المصدر السابق، ص84.
(23) النباهي، المصدر السابق، ص 172.
(24) المقري، المصدر السابق، ج8، ص ص 109-110.
(25) تقي الدين الجراعي، تحفة الراكع والساجد في أحكام المساجد، تحقيق طه الولي، المكتب الإسلامي، بيروت،1981، ص ص 196-197، تقي الدين المقريزي، الإعتبار في ذكر الحطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987، ص363.
(26) Attaah Dhina، les états de l'occident musulan au 13 et 15 siecles، office de publication universitaires، Aller، (sd)، p 310.

(27) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ص 304-306، ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج1، ص ص329-334.
(28) حسن عزوزي،" التآليف في القراءات القرآنية وخصائصه بالمغرب والأندلس في القرن الثامن الهجري"، مجلة الحضارة الإسلامية، العدد الأول، السنة الأولى، وهران، 1993، ص 246.
(29) المقري، المصدر السابق، ج8، ص ص176-177.
(30) نفسه، ج7، ص3.
(31) عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 172.
(32) حسن عزوزي، المرجع السابق، ص247.
(33) سورة آل عمران، الآية 200.
(34) ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في دكر مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص ص 411-413.
(35) المقري، المصدر السابق، ج9، ص 130.
(36) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد المنعم العريان مصطفى القصاص،ج2، دار إحياء العلوم، بيروت، 1996، ص685.
(37) محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، تحقيق محمود عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981، ص87.
(38) سورة الحشر، الآية 21.
(39) أبو عبد الله بن فرج القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (تفسير القرطبي)، المجلد الأول، ط4، مكتبة رحاب الجزائر، 1990، ص ص 52-53.
(40) لخضر عبدلي، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان، دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة تلمسان، 2004-2005، ص ص 92-106.
(41) حسن عزوزي، المرجع السابق، ص 241.
(42) الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه محمد حاجي وآخرون، ج11، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ص17، ابن عباد الرندي، الرسائل الصغرى، تحقيق بولس نويا اليسوعي، دار المشرق، بيروت، 1986، ص ص 118-119.
(43) مبخوت بودواية، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة تلمسان، 2005-2006، ص 75.
(44) حسن عزوزي، المرجع السابق، ص242.
(45) المقري، المصدر السابق، ج1، ص 131.
(46)ابن الخطيب،اللمحة البدريةفي الدولة النصرية، القاهرة، 1374، ص ص 21-22، المقري،المصدر السابق، ص 149.

(47) اليعقوبي إسحاق، البلدان، تحقيق محمد أمين ضناوي، ط1، دار الكتب العلمية،بيروت، 2002، ص 193، الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص193.

(48) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، القسم الثالث، ص 250،اللمحة البدرية،المصدر السابق،ص31.

(49)ابن الخطيب،أعمال الأعلام،المصدر نفسه، القسم الثاني، ص ص 277- 286، ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج4، ص ص 201-204.

(50) ابن خلدون، العبر، المصدر نفسه، ج4، ص ص 204-205.

(51) المقري، المصدر السابق، ج1، ص344، حسين مؤنس، "غرناطة تحفة من تحف الفن وعجيبة من عجائب التاريخ"، مجلة العربي، العدد 89، الكويت، أفريل 1966، ص ص 82-93.

(52) المقري، المصدر السابق، ج1، ص 344.

(53) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج4، ص ص 204-205.

(54) المقري، المصدر السابق، ج5، ص 394.

(55) أبو بحر بن إدريس المرسي، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تحقيق عبد القادر محداد بيروت 1939، ص25.

(56) شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار الحياة، بيروت، 1983، ص72.

(57) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، المصدر السابق، القسم الثاني، ص ص 295-298، ابن الخطيب الإحاطة، المصدر السابق، ج1، ص 368، المقري، المصدر السابق، ج6، ص ص 67-68.

(58) المقري، المصدر نفسه، ج1، ص 131.

(59) نفسه، ج7، ص ص 51-54.

(60) جلال الدين السيوطي، نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فليب حتي، المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك، 1927، ص167.

(61) ابن بطوطة، تحفة النظار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد المنعم عريان، مصطفى القصاص، ج2، دار إحياء العلوم، بيروت، 1996، ص669.

(62) ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج1، ص14.

(63) حمدان حجاجي، حياة وآثار ابن زمرك شاعر الحمراء، ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د ت)، ص194.

(64) ابن خلدون، المقدمة، دار الجيل، بيروت، (دت)، ص588.

(65) أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة بيروت، تونس، 1985، ص376.

(66) التنبكتي، نيا الإبتهاج بتطريز الديباج، ط1، مطبعة الفحامين، مصر، 1351، ص267، ابن خلدون الرحلة، المصدر السابق، ص60، ابن الخطيب، كناسة الدّكان، المصدر السابق، ص 160، ابن مرزوق، المصدر السابق، ص23، ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديون المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص185.

(67) يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية للنشر، الجزائر، 1980، ص205، التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص127.

(68) المقري، المصدر السابق، ج7، ص124، ابن خلدون، الرحلة، المصدر السابق، ص ص 99-107، القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، ص142.

(69) محمد عبد الله الحماد،" التخطيط العمراني لمدن الأندلس"، ندوة الأندلس، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1996، ص 168-169.